دراسات تاريخية المجلد العاشر العدد الثاني السنة 1444هـ/2022م. ص ص 413-424

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

قصور وقبائل منطقة الأغواط في القرن التاسع عشر

The palaces and tribes of the Laghouat region in the nineteenth century .

رميتة عبد الغني

Remita Abdelghani

المركز الجامعي صالحي أحمد بالنعامة

مخبر التراث الثقافي بالجنوب الغربي الجزائري في ضوء النقد المعاصر (ولايتا النعامة والبيض)

remita@cuniv-naama.dz

الارسال: 2021/10/05 القبول : 2021/10/24 النشر: 2022/10/03 المرسل: رميتة عبد الغني

الملخص:

إن منطقة الأغواط وما تكتسيه من أهميّة جغرافية واستراتيجية قبل الاحتلال الفرنسي وبعده ، قد عرفت نشاطا وحركة لعديد القبائل التي شكّلت تجمّعات عاشت في قصور سواء بالأغواط أو المناطق المجاورة لها ، أو من خلال تعاملات القبائل البدوية التي تعيش على الرعي والترحال مع سكان القصور ، وذلك في إطار مصالح مشتركة تجمعهم في حياتهم اليومية وأنشطتهم الاقتصادية وعاداتهم الاجتماعية .

لقدعاشت تلك القبائل في تناقضات بين السّلم والمواجهة ، بفعل ظروف الطبيعة والمناخ وأيضا بفعل ضغوط الاحتلال وسياسة التفرقة ، وفي الوقت نفسه كان للقبيلة و العرش دور في لُحمة المجتمعات الجزائرية وهو ما دفع بالاحتلال الفرنسي الى وضع اجراءات إدارية وعسكريّة للتحكّم في نشاط وحركة تلك القبائل ، خاصّة بعد احتلاله بوابة الصحراء الأغواط وإدراكه أهميتها في التوسع بباقي المناطق الجنوبية .

تهدف هذه الدراسة الى التأكيد على طبيعة التركيبة السكانية لمنطقة الأغواط ، وهي هجينة بين السكان الأوائل الذين سكنوها وبين الوافدين من العرب الهلاليين أثناء زحفهم المشهور في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي . ومن أهم النتائج المُتوصل اليها ، ذلك الامتزاج القوي بين قبائل العرب الوافدة وسكان القصور الذي أنتج لُحمة قويّة بينهم ، ممّا دفع الاحتلال الفرنسي بعد احتلاله للأغواط سنة 1852 لإنشاء حاميات عسكرية وأطواق أمنية للسيطرة على مُقدّرات المنطقة ، ومواجهة حركات التمرّد ضدّه فيها .

الكلمات الدالة : : العروش والقبائل- قصور منطقة الأغواط – الأرباع - الاحتلال الفرنسي للأغواط.

Abstract

The Laghouat region, and the geographic and strategic importance of it before and after the French occupation, has known activity and movement of many tribes that formed groupings that lived in palaces, whether in Laghouat or neighboring areas, or through the dealings of Bedouin tribes who live on grazing and travel with the inhabitants of the palaces, and that in A framework of common interests that unites them in their daily life, economic activities, and social customs.

Those tribes lived in contradictions between peace and confrontation, due to the conditions of nature and climate and also due to the pressures of the occupation and the politics of discrimination. At the same time, the tribe and the throne had a role in the cohesion of Algerian societies, which prompted the French occupation to put in place administrative and military measures to control the activity and movement of these tribes, especially After occupying the gate of the desert, Laghouat, and realizing its importance in expanding the rest of the southern regions.

This study aims to emphasize the nature of the demographics of the Laghouat region, which is a hybrid between the first inhabitants who inhabited it and the arrivals from the Hilal Arabs during their famous advance in the fifth century AH / eleventh century AD.

Among the most important results reached, the strong mixture between the incoming Arab tribes and the inhabitants of the palaces, which produced a strong bond between them, which prompted the French occupation, after its occupation of Laghouat in 1852, to establish military garrisons and security cordons to control the resources of the region, and to confront the rebellion movements against it in it.

Keywords.Historical studies,. Thrones and tribes - palaces of the Laghouat region - Larbaa - The French occupation of Laghouat

---

مقدمة:

إن الدارس لتاريخ الأغواط وضواحيها من خلال تتبُّع مراحل تعميرها وتأسيسها كتجمّع سكاني ، وبمختلف التسميات من قصر أو قصور أو مدينة ، حسب ما جاء في عديد الكتابات يُدرك أصالة المنطقة وعراقتها . ولعلّ من أقدم الكتابات التي ذكرت المنطقة تعود إلى ما ذكره ابن خلدون في تاريخه في أصل التسمية (الأغواط) وانّ جمعها غوط أو غوطة ، وأنّ سكانها الأوائل من بربر مغراوة وقد عرفوا زحفا في القرن الحادي عشر الميلادي ، وهو الزحف الهلالي الذي كان عاملا أساسيا في تعريب المنطقة على اعتبار أنّها كانت عبارة عن قصور لتجمُّعات بربريّة والتي تُعرف اليوم في الجنوب الغربي الجزائري بـ القصور وساكنوها (القصوريّة) ، لا يزالون يُحافظون على لهجاتهم البربريّة في حين الوافدون من الهلاليين هم (العمور) الذين بقوا في ضواحي القصور وهم بدو عاشوا على الترحال وتربية المواشي .

إنّ منطقة الأغواط وما تكتسيه من أهميّة جغرافية واستراتيجيّة قبل الاحتلال الفرنسي وبعده قد عرفت حركة ونشاطا لعديد القبائل التي شكّلت مُجمّعات سكانية عاشت داخل قصور سواء بالأغواط أو المناطق المجاورة لها أو من خلال تعاملات القبائل البدويّة التي تعيش على الترحال مع سكّان القصور ، وهو ما يجعلنا نطرح عديد التساؤلات على شكل إشكاليات لهذه الدّراسة :حول مصطلحي القبيلة والعرش ، وعلاقتهما بالتركيبة الاجتماعية في منطقة الأغواط ؟

وعن أهمّ القبائل والعروش التي عرفتها منطقة الأغواط ؟ وأهمّ القصور المُشكّلة للنسيج العمراني والاجتماعي للأغواط وضواحيها في القرن التاسع عشر ؟ وأخيرا عن علاقة سكان تلك القصور بالقبائل المُتاخمة لها ، في ظلّ الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر .

1. حول مصطلحي القبيلة والعرش :

مفهوم القبيلة في مختلف المعاجم العربية نجده متشابها حسب ما ألفه العرب من تسميات فالقبيلة إحدى عظام الرأس المتصل ببعضها البعض وجمعها قبائل ، ويُقال عن قبائل الشجرة أعضائها وفروعها ، ومن هنا جاء تعريف القبيلة أنّها كيان اجتماعي واقتصادي وسياسي يضمّ عائلات يجمع بينها روابط القُربى[1] . لذلك كان مصطلح القبيلة واسع الاستعمال حتّى أنّه ضاهى الكيس الذي يستوعب عديد الأشياء ، ومنه نلاحظ استعمال هذا المصطلح لدينا خاصّة في الجنوب للدّلالة على التنظيم الاجتماعي القائم ، خاصّة إذا تعلّق الأمر بتحديد الأصل لدى السّاكنة أو النّسب ، أو من خلال التضامن بين أشخاص يرون انتمائهم إلى أصل يجمعهم.كثيرا ما ترادف مصطلح القبيلة بالعرش على أنّه يخصّ الممتلكات الخاصّة بالقبائل ، وهو ما ارتبط أساسا بتصنيف الأراضي الجماعية المرتبطة بقبيلة أو قبائل معيّنة وأطلق عليها أراضي العرش [2].

أمّا علاقة المصطلحين بمنطقة الأغواط كما هو في بعض مناطق من الجنوب الجزائري فقد تعني أحيانا كجزء أو أجزاء من قبيلة كبيرة ، وقد يُطلق على قبيلة أو أحيانا مجموعة قبائل . وفي كثير من الكتابات يُشير أصحابها إلى معنى القبيلة ، ونجدها إذا تعلّق الأمر للإشارة إلى مجموعات شاملة أو مشمولة تكوّن كيانا يشترك أعضاؤه في أصل واحد .

عندما نشير إلى أهم القبائل في منطقة الأغواط وهم الأرباع وحسب ما تتفق حوله جلّ الكتابات ، فإنّهم من النّازحين الهلاليين ثمّ نذكر التركيبة الأولى لهم وهي أربعة عروش (الحجاج والعمامرة وأولاد زيد وأولاد صالح) [3] فهنا تكون القبيلة بمعنى الأصل والعرش بمعنى الأجزاء ، ونفس هذه الفروع لاحقا قد تشكّل قبائل ، فالدكتور محمد السويدي عند تناوله لبدو الأرباع كنموذج لنمط البداوة ، يستخدم المصطلحين القبيلة والعرش كمرادفين والعرش كفرع للقبيلة [4].

1.1 أهم قبائل منطقة الأغواط :

تتفق الروايات حول ساكنة منطقة الأغواط أنّها كانت من قبيلة مغراوة البربرية ، وهي احد بطون قبيلة زناتة الشهيرة التي سادت المغرب الأوسط حتى المحيط الأطلسي طيلة القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين . وحسب ابن خلدون فإنّ من أفخاذ وفروع مغراوة " بني سنجاس " وهم من سكن المنطقة الممتدة بين الزاب وجبل سيدي راشد (جبل عمور) ، وذكرهم باسم لقواط [5].

أكّد ذات الكاتب ابن خلدون أنّ قبيلة مغراوة وفروعها ، رفضت اعتناق المسيحية وثبت اعتناقها الإسلام . إنّ ما عرفته المنطقة منذ القرن الحادي عشر الميلادي إثر الزحف الهلالي من القبائل العربية التي اجتاحت شمال إفريقيا بما فيها منطقة الأغواط ، وهذا الذي اضطرّ القبائل البربرية في المنطقة للّجوء إلى الحصون والمعاقل حسب ما أورده ابن

خلدون وهو ما أدّى لاحقا إلى الاندماج التدريجي ، بين القبائل الأصلية البربرية وبين القبائل الهلالية الوافدة ، فكانت النتيجة أيضا تعريب المنطقة واندماجها [6].

لعلّ أهمّ القبائل المميّزة لمنطقة الأغواط والتي يُجمع الباحثون على استقرارها في المنطقة ، هم الأرباع وهنا يثبت ما تناولناه في العنصر السابق عندما يترادف مصطلحي القبيلة والعرش ، فقبيلة الأرباع يعود تاريخ استقرارها بالمنطقة لحوالي ثلاثة قرون ونصف حسب أقدم الوثائق . ويتلخّص تواجد هذه القبيلة في منطقة الأغواط من خلال عديد الفرضيات والروايات التي رأت أنّ هذه القبيلة بدأت صغيرة ، ثمّ تطوّرت لتشمل عديد العروش ومنها إلى توسّع أكبر . فهناك من يرى أنّ أصل الأرباع بربر تعرّبوا مثلهم مثل الكثير من القبائل التي كانت متواجدة عبر المنطقة المحصورة بباليك تيطري وجنوب المدية . وهناك من ينسبها إلى قبيلة هلالية كبيرة استوطنت الزاب مند قرون وروايات أخرى تؤكّد وصول هذه القبيلة مع الزحف الهلالي عبر منطقة الزاب .

وفي هذا السياق يؤكّد النقيب Le Huraux أنّ اسم الأرباع أُطلق على قبيلة كبيرة من الهلاليين الذين استوطنوا منطقة الزاب منذ قرون ، وهذا بدوره تأكيد آخر على فرضية مجيء هذه القبائل ضمن الاجتياح الهلالي للمنطقة [7].

إنّ أوّل تلاحم لقبيلة الأرباع يدعم تسميتها بأربع عروش(المعامرة ، الحجاج ، أولاد صالح وأولاد زيد) أي بمعنى الأربعة عروش أو قبائل ، أو حتى بجمع ربع ومجموعها أرباع حسب بعض التفسيرات للاسم .ولأنّ الظروف المعيشية كانت صعبة على مختلف الأصعدة ، فقد واصلت قبيلة الأرباع توسعها ضمانا للأمن والاندماج مع بقية ساكنة منطقة الأغواط ، وتحت ضغوط الاحتياجات الاقتصادية وفي إطار الضوابط والحاجات الاجتماعية ، لتصبح بعدها تعدّ قبائل وعروش جديدة ضمّت (أولاد سيدي سليمان أولاد بن شاعة أو الحرازلية ، الزكازكة ، المخاليف الجرب ، أولاد زيان ، وأولاد سيدي عطاالله) وعرف ذلك بـ ائتلاف قبيلة الأرباع لسنة 1844 [8] وكانت هذه القبائل تعيش على البداوة والترحال ، محرّكها الاقتصادي يكمن في تعاملها مع بقية القبائل والعروش المجاورة لها ، سواء من الرحل أو من قاطني القصور .

في كلّ الأحوال تبقى التوسّعات المطروحة لقبيلة الأرباع فرضيات ، سواء الأولى التي قد تكون وراء تسمية القبيلة من خلال عدد القبائل الأربعة المذكورة أو بجمع مفرد ربع " أرباع " ، أو بالنسبة للتوسع الأكبر الذي حوّلها إلى عشرة عروش أو قبائل وذلك في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

2. أهمّ قصور الأغواط وضواحيها :

القصر لغة هو المنزل وجمعه قصور ويعني أيضا مقر الحاكم أو قائد ، ويُرمز به أيضا للدّلالة على التجمّعات السكنية في حال تكون آهلة بأصحابها أو بهجرهم لها .نفس المصطلح قصر لدى سكان الجنوب يُرادف مدن الصحراء ومدن الواحات ، لاسيما أنّه يرتبط بزراعة النخيل التي تحيط به وتميّزه كواحة ، وقد تجتمع عدّة قصور جهوية داخل تجمّع قصر كبير يكون كلٌّ منها يخص عرش أو قبيلة أو بطن من بطون قبيلة ، وقد تتخذ تلك التجمُّعات داخل القصر أسماء للأزقّة والأنحاء قد تكون لرجل صالح أو دفين من رجالها الصّالحين أو حتّى اسم لقبيلة انضمّت للقصر ، كما أنّ ساكنة القصر تشترك في المساجد والجامع والسّوق ،ولعلّ ذلك ما يُفسّر تطوّر القصر من حيث عمارته وبناياته وساكنيه [9] .

ومن مميّزات القصر في الجنوب الجزائري أيضا هو ارتباطه الوثيق بنشاط الفلاحة ، الذي يتواجد أساسا قرب المجاري المائية وهو ما يُعطي تلك الصورة والوضعية النمطية لقصور صحراوية مُحاطة بالبساتين وواحات النخيل ، وهو ما يُشكّل مصدر الرّزق لسكان القصر وفي نفس الوقت تتحوّل الواحة برمّتها كحاجز منيع أمام تقدّم الرّمال خاصّة عند هبوب الرياح والعواصف الرمليّة. كما يعتبر الماء من ركائز القصر الأساسية والذي يتطلّب نظام ريّ وتخزين ، يضمن للساكنة التزوّد بماء الشرب وسقي الواحات والزراعة المعاشية التي تُمارس داخل القصر تحت ظلّ النخيل . من ميزات القصر في جنوبنا ومنطقة الأغواط على الخصوص ، هو تخزين الغلال الزراعية والغذاء لاسيما الحبوب ، والتي تخصّ القبائل المجاورة من البدو الرحل الذين لا يأمنون على مؤنهم إلاّ بوضعها في تلك القصور أثناء ترحالهم [10]باتّجاه التل أو الشمال في إطار نشاطهم الاقتصادي الدؤوب .

1.2 ومن قصور الأغواط وضواحيها نذكر على الخصوص : قصر الأغواط أو قصورها :

منطقة الأغواط المعنية بالدراسة يحدّها شرقا أولاد نايل وجنوبا بلاد ميزاب ، وغربا قبائل كسال وتشمل الضواحي عديد القصور كتاجموت وعين ماضي والحويطة والعسافية وقصر الحيران كما تشمل عدّة قبائل لعلّ أكبرها قبيلة الأرباع تعدّ المدينة (القصر) حوالي ثماني مائة بيت ، وتنقسم إلى حيّين رئيسيين بارزين : الحيّ الغربي تابع لأولاد سرغين والآخر شرقي تابع للأحلاف [11]، ولكلّ جماعته وقيادته الذي بدوره له قادة (قايد الزقاق) ولهذه التركيبة دورها في المشاحنات والمواجهات التي تطرأ من حين لآخر بين الطرفين .

بلدة الأغواط أو قصر الأغواط الكبير الذي تميّز بسور يحميه له أربعة أبواب ، وبتحصيناته كما أورده كثير من المؤرخين ، وهي عبارة عن واحة تنقسم إلى شطرين يتوسّطهما جبل تيزقرارين آخذة اتجاه شمال شرق نحو الجنوب الغربي ، ويحدّ الأغواط من الشمال واحات شمالية وأخرى جنوبية كما تمتدّ البساتين بالموازاة مع تلك الواحات وتشمل عديد الأشجار المثمرة من الأجاص والمشمش وأشجار الرّمان والتّين والجوز والسفرجل ، وجميعها مُحاطة بأشجار العنب [12]. بين الأشجار المثمرة تنتشر زراعة أنواع من الخضر ، باختلاف مواسمها والتي تدخل في غذاء أهل الواحة . إنّ هذا البساط الأخضر الغذائي ، ترعاه واحة بين نخيلها وتحت ظلال وحماية جريدها سواء عند الحرّ أو في ليالي القرّ والصقيع ، تضمّ واحة الأغواط حوالي 15 ألف نخلة باختلاف أنواع التمور والتي ليست من الأنواع الجيّدة ، وتوجّه أساسا للاستهلاك المحلّي [13]. هذه الواحة بأشجارها وبساتينها تُسقى من وادي الخير (وادي امزي) الذي من روافده يتمّ توزيع الماء على كلّ الملكيات المُدوّنة ، وتُسقى لساعة أو ساعتين يتمّ قياسها بساعة رمليّة ، ويقف على ذلك رجل أوكلت له مراقبة المياه وإدارة توزيعها .

تُجمع الروايات أنّ التأسيس الحقيقي لقصر الأغواط يرتبط أساسا بالولي الصالح سيدي الحاج عيسى (1668 م - 1737 م) الذي بقدومه الى المنطقة سنة 1700م [14] عمل على توحيد ولمّ شمل الساكنة المُقسّمة عبر مجموعة من الأحياء والقصور الصغيرة على غرار قصر بن بوطة ، وكان الهدف تقوية شوكة القصر الكبير الذي سيمثل الأغواط ، واكتساب أهله للقوة التي تمكّنهم من صدّ هجمات القبائل البدوية المتكرّرة ، وحتى من بعض القصور الغير بعيدة عنهم وعلى هذا الأساس يبدأ تأريخ قصر الأغواط بهذا التاريخ ومن خلال الولي الصالح سيدي الحاج عيس القادم من تلمسان و الأغواطي لاحقا .

لكلّ حيّ في القصر سوق خاص به ، كسوق الخير للأحلاف ، ولربّما تمّ تخصيص الأسواق لاحقا حيث ينفي بن الدين الأغواطي في رحلته وجود مكان خاص للأسواق [15]. وينزل في هذه الأسواق الباعة من عديد القبائل والعروش من الأرباع والعمور وأولاد خليف وأولاد شعيب والمخاليف وأولاد مخطار وأولاد سيدي عطاالله ، وأولادسعيد وأهل بوسعادة والشعانبة .فمثلا بني مزاب يبيعون البارود والعبيد ، والحرازليّة من توقرت يبيعون الأسلحة وحجر البنادق الذي يُجلب من تونس بينما أهل بوسعادة يُسوّقون الأصواف والزيت ، أمّا القبائل البدو الرُحل فيجلبون الدّهان والتمور والحبوب الآتية من التل ، والأغنام والجبن ، ويجلب الشعانبة العبيد للبيع والمقايضة [16].

بالمقابل يقتني أهل الأغواط تلك المعروضات من السلع بالشراء ، أو مُقايضتها مقابل البرنوس الأبيض أو الأسود والحايك من كلّ الأنواع وعباءات الصوف . كما تتم المقايضة مقابل التوابل وعربات الأحصنة والسكر والبنّ الذي يقتصر تناوله فقط لدى الأغنياء . كما يتواجد في قصر الأغواط دكاكين الحدادة وصنّاع الأسلحة والنّجارة ودكاكين المواد الاستهلاكية ، أمّا صناعة الصوف وصباغته فكانت مُحتكرة من طرف اليهود الذين كانوا يعدّون حوالي 20 عائلة [17]. من مظاهر التكافل الاجتماعي ، كانت العائلات الميسورة تترك لكلّ عائلة منتوج من التمور ومن الخضر للمسجد لتُوزع على المحتاجين ، وكانت تعدّ الأغواط أربعة مساجد، وكان النخيل الموجه للصدقات يُعرف بنخيل حب الله.

قصرعين ماضي : هو قصر قريب من تاجموت ، مناخه يميل الى الجفاف وبناياته ملاصقة لبعضها البعض . وللقصر بابان أحدهما شرقي يُعرف بباب الكبير ، والآخر شمال غربي يُعرف بباب الساقية .
قصر عين ماضي مُسيّج بأسوار عاليّة من الحجارة الصلبة ، التي استطاعت ان تصمد أمام العديد من الحصارات وهجمات المدافع التي فشلت في اختراقها في كثير من الأحيان [18].
قصر عين ماضي مُحاط بالبساتين والأجنّة التي تشمل على عديد الأشجار والفواكه لاسيما التفاح وتتغذّى من عين ماء تنبع من أحد روافد جبل العمور المجاور لهم ، كما أنّ نظام السقي المُعتمد مُشابه بالموجود في الأغواط و يوجد بالقصر أربع آبار تكفي لتموين السكان في حالة الحصار .

يوجد بقصر عين ماضي حوالي مائتي بيت [19]، يتوسّطها بيت بلون أبيض هو بيت التيجاني ويضمّ القصر أيضا مسجد بدون صومعة ، والأزقة ضيّقة يصعب اجتيازها من شخصين إلا بصعوبة ، ومن ميزات أهل القصر وسكّانه ألبستهم النظيفة وأناقتهم ومن ذلك ما ميّزهم عن غيرهم من الجيران [20].

تُرجِع بعض الروايات أنّ عين ماضي يعود تأسيسها الى الدولة العبيدية بالمغرب الأوسط ، وهذا الحصن اختطّه ماضي ابن يغرب من قبائل العرب ، في المائة الخامسة لأوّل استيلاء العرب على المغرب الأوسط في أيام العُبيديين [21]. وقد عُرف أهل عين ماضي بالشرفا نسبة لآل البيت وهم من حفظة كتاب الله ويُعرفون أيضا بالتجاجنة نسبة الى التيجاني ، وقد ذاع صيتهم منذ القرن السابع عشر كأسرة شريفة سكنت المنطقة قبل دخول الأتراك للجزائر في القرن السادس عشر وكان لهذه البلدة مكانة دينية كبيرة على يد سيدي أحمد ابن سيدي محمد بن المخطار التيجاني ، الذي منذ شبابه جال مختلف مراكز ومنابع العلم والمعرفة عبر مختلف زوايا المنطقة ، و بعد رحلتين نحو فاس وبعد أدائه فريضة الحج عاد ثانية الى مسقط رأسه بعين ماضي ، ومنها الى قصر بوسمغون الذي مكث فيه بخلوته وقد التفّ حوله الكثير طلبا لعلمه واعترافا لرجاحة عقله وتقواه ، وفيها كانت رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلّم والتي أكّد فيها صاحبها أنّها كانت رؤيا حضور و ليس منام [22].

إنّ قصر عين ماضي وفي كلّ المناسبات ، يتزامن ذكره بأسرة التيجاني وبأسواره المنيعة التي أيضا تتزامن بذكر عديد الحصارات والهجومات التي تعرّض لها على عديد الفترات من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الخصوص . وأنّ جهود التيجاني كانت جميعها منصبّة على أن يبقى قصره منيعا ، ولا يخضع لأيّ قوة معادية مهما كانت ، من خلال تقوية التحصينات وتخزين المؤونة والمياه واقتناء الاسلحة والذخيرة وكذلك المقاومين من الرجال المُسلّحين داخل القصر ، وتقويّة الدّعم من خارج القصر لاسيما من طرف القبائل البدوية والمجاورة له وأيضا من اتباع التيجانية خاصة من الاغواط [23].

لقد عانى قصر عين ماضي من الاعتداءات التي استهدفته والحصارات التي تعرّض لها وعلى فترات عديدة ومتتابعة والتي غالبا ما انتهت بتحطيم اجزاء من تحصينات القصر ، واتلاف بساتينه المحيطة به وفرض ضرائب وإتاوات مالية على زعيم القصر لإضعاف واستنزاف خزينته ، وبالتالي اضعاف مكانته بالمنطقة.

إنّ أهمّ الهجمات والحملات التي استهدفت قصر عين ماضي هي التي قادها الباي محمد الكبير سنوات 1786 و 1785 ، وحملة الباي حسن سنة 1826 ، ولعلّ أهمّها تلك التي قادها الأمير عبد القادر سنة 1838[24].

فالحملة الأولى كلّفت التيجاني أعباء مالية كبيرة على شكل اتاوات ، وهو ما دفع بهذا الأخير إعادة تأهيل تحصينات القصر وإصلاح جدرانه وزيادة علوّها (2 أمتار عرض و حوالي 8 أمتار ارتفاع) وبعد معاودة الكرّة بعد عامين من طرف الباي محمد الكبير ، وجد القصر في حالة تحصين أقوى وتموين أفضل وبعد أن استمر حصاره للقصر شهرين ونصف ، عمد الى قنبلته ثم انصرف بعدها . بعد فشل محاولات الأتراك المتتالية في اقتحام قصر عين ماضي ، ما شجع الأخ الأكبر لسيدي محمد التيجيني (بن سالم التيجيني) على الذهاب لمهاجمة الأتراك في عقر دارهم قرب معسكر ، وهناك في سهل غريس تلقى هزيمة كبرى [25]، بعد خيانة أنصاره هناك وانضمامهم للأتراك وهو ما كلفه رأسه التي أُرسلت لداي العاصمة . لعلّ أهمّ وأخطر ما تعرّض له قصر عين ماضي كان حصاره من طرف الأمير عبد القادر سنة 1838 والذي دام ثمانية أشهر التي أبدى فيها المقاومون صمودا (350 من أحسن المقاومين) [26]والدّعم الذي وصل للقصر و مؤونة قدّمتها القبائل والقصور المجاورة ، عربون دعمها للتيجاني .

قصر تاجموت : ذلك القصر الموصوف بالجميل به حوالي مائة بيت ، ويبعد عن الأغواط بحوالي عشرة فراسخ (Lieux) ويقع وسط بساتين وليس محمي بأسوار ، وللقصر بابان احدهما باتجاه عين ماضي والآخر باتجاه الأغواط يُعرف بباب أولاد محمّد . قصر تاجموت كبقية قصور المنطقة به بساتين خصبة ، على شكل حزام يُحيط بالقصر ولعلّ ذلك ما يُرجّح أصل التسمية " تاجموت " التي قد تعني بالرومانية الحزام الأخضر حسب بعض الروايات ، وقد زُرعت بها أشجار مثمرة كثيرة وخضر أمّا النخيل بها محدود وليس بالكثير ، كما يعمل وادي امزي على سقي تلك البساتين .

وسط بنايات القصر ، تتربّع قبّة بيضاء هي للولي الصالح سيدي عطاالله القادم من مراكش ، وكان آبائه قد استقرّوا قرب تلمسان بعد عودتهم من المغرب ومن هناك عبروا لقصور الجنوب الغربي ، ليستقرّ والده " سيدي محمّد العابد " بالأبيض سيدي الشيخ مطلع القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر قدم ابنه سيدي عطاالله الى تاجموت حيث داع صيته والتف حوله السكان ولقي منهم كل الترحاب ، ودُفن شمال القصر . ومن أهم الحرف الشائعة في قصر تاجموت صناعة الصوف ، ويعيشون على حرثهم القليل وخضر وفواكه بساتينهم وما يتبادلونه مع الجيران ، ولديهم بيوتا خاصّة يضع فيها جيرانهم من القبائل حبوبهم [27].
كان لتاجموت نصيب من الأهوال التي تعرّضت لها المنطقة نهاية القرن الثامن عشر ، أيام ولاية باي وهران محمد وابنه عثمان لإخضاع قصر عين ماضي ، ومطلع القرن التاسع عشر أيام حصار الأمير عبد القادر لعين ماضي ، خاصّة بعد وقوفهم مع التجاني في وجه خليفة الأمير عبد القادر الحاج العربي . ولعلّ المظهر الآخر لتردّي أحوال القصر وساكنته كانت بعد سقوط الاغواط في ديسمبر 1852 ، حسب ما جاء في وصف أحد من مرّوا بالمنطقة وزاروا القصر وهو Eugène Fromentin في صيف 1853[28] في طريقه لعين ماضي ، بوصفه لقصر تاجموت وأحوال وساكنته المزرية .

قصر تاجرونة : هو قصر به حوالي مائة بيت يحيط به سور بارتفاع ثلاثة امتار ، وبه باب واحدة ترتبط بأربعة أبراج وجميعها في أوضاع مهترئة ، حتى تكاد لا يكون حزامها متصلا .رغم تعدّد فرضيات تسمية القصر بـ "تاجرونة" على أنّها تسمية بربرية كالكثير من التسميات المجاورة والمتواجدة بالمنطقة ، إلاّ أنّ هناك رواية تعود الى أميرة رومانية أضاعت تاجها ثم وجدته قرب وادي زرقون ، وبتلك المناسبة أنشأت تلك البلدة فسُميت بتاج الرومية (تاج رونة) [29] ويُنسب سكان المنطقة إلى الولي الصالح بن يوسف الذي كان له ولدان هما الولي الصالح احمد بن يوسف خميس مليانة والثاني هوسيدي محمد بن يوسف ، هذا الأخير المتوفي بـ للماية ونُقل رفاته إلى قصر تاجرونة . ويعود تاريخ تأسيس القصر إلى القرن السابع عشر ، أي بقدوم سيدي محمد بن يوسف . بيوت القصر مكتظة بعضها مع بعض وأزقّتها ضيّقة ومنفتحة على الفضاء الخارجي ، وحالة تلك البوت بائسة أغلبها لونه قاتم . يعيش أهل القصر على فواكه بساتينهم ، أمّا الحبوب فيجلبونها من التل كبقية القصور الأخرى ويمتلكون رؤوسا معتبرة من الماشية(أبقار وأغنام وماعز) ومن مصنوعاتهم سروج الخيل والخيوط الصوفية وبعض الألبسة الصوفية التي يبيعونها لجيرانهم [30]. يسري على القصر نظام الجماعة التي تُعيّن القائد ، وكان أولاد يعقوب الأحرار يضعون حبوبهم ويُخزّنونها بقصر تاجرونة على غرار باقي القصور المُجاورة وتعاملها مع البدو الرّحل والقبائل المجاورة .

قصر العسّافية : يبعد القصر عن الأغواط بحوالي 14 كم ولا يوجد به أسوار تحميه ، ويضم حوالي ثلاثون بيتا متلاحمة مع بعضها البعض والمسجد يتوسط القصر [31].
يحتوي القصر على عدد قليل من النخيل وبعض البساتين التي تُسقى من عين ماء ، مصدرها أحد فروع وادي امزي الشرقية وتكون عندها بداية ضعف تدفّقه ، ويلجأ فيها السكان لحفر الآبار . المعامرة وهم أحد فروع الأرباع يضعون حبوبهم بالقصر وأيضا بعض فروع أولاد نايل .

كان قصر العسافية سابقا مزدهرا وقويا ، بل كان دوما يُشكّل قلقا لجيرانه بقصر الاغواط ، وتتواتر عدّة روايات عن القصر وما تعرّض له من تحطيم إثر وابل من الأمطار والبَرَد ، وذلك على خلفية المُشاحنات التي كانت دائرة بين سكان القصر وسكان قصر الأغواط الذين بعد حلول الولي الصالح سيدي الحاج عيسى بينهم مطلع القرن الثامن عشر ، توسلّوا اليه طالبين منه أن يدع الله (وهو الذي دعوته مستجابة)أن يُدمّر خصومهم سكان قصر العسافية [32]. وقد تمكّن سكان قصر العسّافية من اعادة بناء ما تحطّم من القصر ، حسب ذات الروايات بعد اتّصالهم بسيدي الحاج عيسى – مُستغلّين فرصة غضبه على سكان قصر الأغواط ...- طالبين منه العفو والنصح والدّعاء لتحسين أحوالهم ، فنصحهم بـ" بناء بلدة جديدة أسفل ممّا كانت الأولى ، وسيحفظها الله "[33] وكان ذلك لهم وأصبحوا في أمان دون مُشاحنات أو مواجهات مع خصومهم من قصر الأغواط .

كبقية القصور تعرّض قصر العسافية للتخريب إثر المواجهات التي عرفتها المنطقة ، لاسيما تلك التي شهدت مشادّات ومواجهات بين جيش الأمير عبد القادر بقيادة خليفته الحاج العربي وخصومه سنة 1840 حيث أنّ نصف القصر تعرّض للتهديم بعد ثورة السكان ضدّ خليفة الأمير عبد القادر وطرده من القصر [34].

قصر الحيران : تعدّدت روايات تسمية القصر بـ" قصر الحيران " والتي تعود الى زحف الهلاليين على المنطقة ، ومنها زعيم لهم وضع إبله بالمنطقة لترعى وحبس صغارها " الحيران " بالمنطقة القريبة من مناطق الرعي . أمّا السكان أيضا فيرجع نسبهم للقبائل الهلالية ومنهم " رحمان " الذين قطنوا المنطقة ثمّ القصر الذي تأسس رسميا مطلع القرن التاسع عشر ، على يد زعيم الأغواط أحمد بن سالم . يقع القصر الى جنوب شرق الأغواط ، وكان يضم حوالي مائة وعشرون بيتا بأفنيتها وصوامع تخزين الحبوب . يحيط بالقصر سور مرتفع ليس في حالة جيّدة أمّا بساتين القصر فليست على امتداد كبير وقليلة الخصوبة كما تقلّ فيه أشجار النخيل ، في حين يحتوي القصر على أراضي لزراعة الشعير والقمح والتي تُسقى من أحواض قريبة من آبار تم حفرها ، بسبب ضعف تدفق مياه وادي امزي والذي يعرف في المنطقة جفافا لعديد الأشهر ، كما يوجد بئر في وسط القصر مُخصص للطوارئ أو حالة الحصار [35]. يعيش سكان القصر على نشاط الزراعة وتربية المواشي ، في حين تشتغل النساء بغزل وصناعة الأصواف .عرف قصر الحيران أهمية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، عندما جعل منه حاكم الأغواط أحمد بن سالم مركزا مُتقدّما لحمايته من الناحية الشرقية ، لاسيما من طرف القبائل التي يُخشى منها في حالة الحرب ، وفي فترة السّلم يُسخر القصر لخدمة تلك القبائل والمُتاجرة معها .

يحتوي القصر على صوامع للغلال مكّنت عديد الفرق من قبائل أولاد نايل ومن الأرباع من تخزين حبوبهم فيها لم ينج قصر الحيران من مخاطر المواجهات التي عرفتها المنطقة ، خاصّة تلك التي دارت بين جيش الأمير عبد القادر وزعماء الأغواط وعين ماضي ، في أربعينيات القرن التاسع عشر حيث تم القضاء على خليفة الأمير عبد القادر الحاج العربي بقصر الحيران [36]. وبعد سقوط الأغواط منتصف القرن التاسع عشر ، وإنشاء سلطات الاحتلال لدائرة الأغواط سنة 1853 كان القصر ضمن القصور التي وُضعت تحت السيطرة ، للحد من نشاطات سكانها وإخضاعهم والنّيل ممّن يخرج عن سياسة الاحتلال .

3. علاقة سكان القصور بالقبائل في ظلّ الاحتلال الفرنسي في القرن 19 :

إن البدو الرحل من خلال قبائلهم المُتنقّلة على غرار الأرباع هم وسيلة اتصال وتواصل ، التي يتمّ بواسطتها جلب التمور والمؤونة التي يحتاجونها وسكان القصور ، الذين بدورهم يكْترون لهم وسائل التنقّل كالإبل والعلاقة أيضا في الاستقرار متبادلة بين سكان القصور الذين يوكلون ماشيتهم من أغنام وماعز للقبائل المتنقلة المُجاورة لهم لرعيها ، وبذلك يستفيد الجميع من انتاج ألبانها ولحومها وأصوافها . فالبدوي من الرُحّل يرى نفسه ذلك الحرّ المتنقل دو الفضائل والمكانة في قبيلته وعشيرته ، وساكن القصر يرى أيضا نفسه من خلال أهميته الاقتصادية التي يُشكّلها لغيره من القبائل المجاورة له ومن ثمّ فاختلاف الامكانيات يُحقق مبدأ التكامل الذي كان ضروريا للتعايش بين الجميع . لقد تطوّرت تلك العلاقات في بعض الأحيان لتصل للمصاهرة بين القبائل الرحل وسكان القصور ولعلّ أهمّ الروابط بينهما حينما يضع هؤلاء البدو الرحل حبوبهم في مخازن القصور لتخزينها وحمايتها أوقات ترحالهم [37]، مما مكّن ساكنة المنطقة من العيش في تضامن وتلاحم أيام الرّخاء و أيضا في أوقات الأزمات .

لطالما عاشت منطقة الاغواط بقصورها وقبائلها (عروشها) مُجتمعة مكّنت من أن تكون مُستقلّة عن تجاذبات القوى المُتربصة بها : كأمراء المغرب وسلاطينه وبايات الغرب الجزائري من الأتراك ، وكانت تكتفي غالبا هذه القوى بفرض ضرائب عليها خوفا من الثورة ضدّها ، كما شكّل ذلك لاحقا سدّا مُقاوما لمُحاولات الاحتلال الفرنسي اجتياحها عديد المرّات والمناسبات قبل منتصف القرن التاسع عشر .
كما أنّ الوضع الاداري الذي سارعت فرنسا لممارسته بعد سقوط الاغواط 1852 تمثّل في إنشاء دائرة الأغواط في 1853/07/22 ، والتي ضمّت : قصور الأغواط ، وعين ماضي والحويطة والعسافية ، المخاليف الزرق والجرب ، وقصر الحيران والأرباع (الحرازلية –المعامرة – الحجاج – أولاد صالح) بعد ضمّهم في شكل أغوية تابعة مباشرة للسلطة الفرنسية [38]. كما تمّ إنشاء مخططا أمنيا وإداريا يُتيح لقوات الاحتلال الفرنسي التحكّم في قبائل المنطقة وحركتها وهي تعلم أهميّة واستراتيجيّة المنطقة ، و خطوط حركة وتنقّل القبائل خاصّة نحو الشمال والتلّ ، ومن ثمّ بقائهم تحت المُراقبة بالإضافة إلى وضع مخططا آخر للأسواق الأسبوعية حدّدتها بسوقين بين الأغواط والجلفة ، وإنشاء مراكز (مكاتب) عربية في المنطقة وكذلك الحال بالنسبة لجنوب الأغواط وحدودها مع بلاد بني ميزاب [39].

وبالرّغم من كل تلك الاجراءات ونتيجة لاحتلال الأغواط ، عرفت المنطقة حركات تمرّد وصل صداها الى مناطق التلّ ، ممّا جعل سلطات الاحتلال في مواجهة دائمة أمام هذا الخطر .

وجدت قبائل منطقة الأغواط نفسها في وضع خطير تحت إدارة الاحتلال الجديدة ، التي أنشأت حاميات عسكرية لها في الأغواط [40] مهمّتها الأساسية مراقبة الوضع وردع أيّ تحرّك خارج قوانين السُّلطة ، ومن ثمّ إخضاع الجميع بالقوّة ، وأيضا إقامة تحالفات مع بعض الأعيان في الأغواط وما حولها : فقد تمّ استقطاب أحمد بن سالم بصفته زعيما على الأغواط ، والتجاني كصاحب نفوذ وتأثير ديني على عديد القبائل في المنطقة .
بالمقابل لم يخضع الجميع لتدابير السلطة الفرنسية وسيطرتها ، على غرار قائد وزعيم الأرباع ابن ناصر بن شهرة الذي قطع عهدا على نفسه ، بعدم التعامل مع الوافد الجديد والمحتل إلاّ من خلال محاربته وعدم الخضوع لسيطرته وإدارته والتحالف مع الثوار من مختلف المناطق لمواجهته .

4.خاتمة :

إنّ منطقة الأغواط بقبائلها المتنوعة والتي أدّى امتزاجها الى ظهور مجتمع بين البداوة والاستقرار في القصور شكّلت نموذجا لبقية مناطق الجنوب الجزائري ، في مواجهة الأطماع المُختلفة والتي انتهت بوصول الاحتلال الفرنسي الذي أدرك مبكّرا أهمية المنطقة ، من أجل إتمام مخططاته التوسعية في الجنوب الجزائري والتطلّع الى جنوب الصحراء . لقد شكلت ساكنة الأغواط وضواحيها لُحمة مُجتمعية وإن انتابتها في بعض الأحيان خلافات ومواجهات ، إلاّ أنّ مصيرها المشترك حتّم عليها العيش في تكامل وتجانس سواء في فترات السلم والرخاء ولاسيما في فترة الاحتلال الفرنسي بعد سقوط عاصمة المنطقة الأغواط في منتصف القرن التاسع عشر .

5.المراجع :

[1]-عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ط1 ، دار القلم ، بيروت ، 1978 ، ص 129

[2] -André Beteille " A propos du concept de tribu " Revue Internationale des Sciences Sociales , vol 32 n°04 , 1980 , p 891 .

[3] - E. Mangin " Notes sur l'Histoire de Laghouat " , Adolphe Jourdan , Librairie –Editeur , Alger , 1895, p 27 .

4 -محمد السويدي ، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري –تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر- ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص 167 .

[5]-عبد الرحمن ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج7 ، باب الخبر عن بني سنجاسن وريغة ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، 2000 ، ص 63.

[6]-Ernest Mercier "Histoire de l'Afrique Septentrionale" tome 3 , Ernest le roux Editeur , Paris , 1868 , p 548 .

[7]-Léon Le Huraux , Le Nomadisme et la colonisation dans les hauts plateaux de l'Algérie , Edition du comité de l'Afrique Française , Paris , 1931 , p33 .

[8]- Louis . Rinn , " Beylik du Titri ; Groupes guerriers " Revue Africaine , n°227 du 4 e trimestre , A.J.L Editeur , Alger , 1897 , p 347 .

[9]-Le grand dictionnaire Encyclopédique , Larousse , T7 , 1984 , p 7905 .

[10]-V .Colomieu , Voyage dans le Sahara Algérien de Géry ville à Ouargla 1862 , le tour du monde , 1863 , p 162

[11]-Marey Monge , Expédition de Laghouat –dirigée aux mois de Mai et Juin 1844 , Imprimerie A.Bujet , Alger , 1846 , p 35 .

[12]-الحاج ابن الدين ، رحلة الأغواطي ابن الدين الحاج ، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، المعرفة الدولية للنشروالتوزيع ، الجزائر، 2011 ، ص 87 .

[13]-Georges Robert , Voyage a travers l'Algérie , Notes et croquis , E. Dentu , Paris , 1891 , p 321

[14]-C. Trumelet , l'Algérie Légendaire –En pèlerinage .., Librairie Adolphe Jourdan , Alger , 1892 , p 117 .

[15]- الحاج ابن الدين ، المصدر السابق ، ص 88 .

[16]-E. Daumas , Le Sahara Algérien , Etudes Géographiques Statistiques et Historiques sur la région au sud des établissements Français en Algérie , Alger , 1844 , p 18 .

[17]-E . Daumas , opcité . p 20 .

[18]-أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الناصرية الكبرى ج1–دراسة وتحقيق : د. المهدي الغالي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، المملكة المغربية ، 2013 ، ص 204 .

[19]-Arnaud " Siège d'Ain-madhi par El Hadj Abdelkader Ben Mohi ed dine , In Revue Africaine " n° 47 , mars 1864 , p 354 .

[20]-E . Daumas , Ibid .

[21]-محمد ابن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1 ، تعليق محمود حقّي ، ط2 ، دار اليقظة العربية ، بيروت 1380هـ/ 1964 ، ص 305 .

[22]-ابن العربي علي حرازم ، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي ابي العباس التيجاني ، ج1 ، مطبعة الباي الحلبي ، مصر، 1927 ، ص51

[23]- E . Daumas , opcité . p38 .

[24]- E. Mangin , opcité , p 21 .

[25]- الحاج ابن الدين ، المصدر السابق ، ص 89 .

[26]- E . Daumas , ibid .

[27]- E . Daumas , opcité . p29 .

[28]-Eugène Fromentin , un été dans le Sahara , Edit 3 ,Librairie Plon , Paris , 1856 , p230 .

[29]-Michel Antar , "Chevauchées d'un futur Saint Syrien à travers les Ksour et Oasis Oranais " Collection Tetzel Paris , 1907 , p 84 .

[30]- E . Daumas , opcité . p 44 .

[31]- E. Daumas , Le Sahara Algérien , ibid p 30 .

[32]- C. Trumelet , l'Algérie Légendaire , opcité p 118 .

[33]- C. Trumelet , ibid p 123 .

[34]-Ibid , p 70 .

[35]- E . Daumas , opcité . p 31.

[36]- E . Daumas , ibid , p 32 .

[37]-V.Colomieu , Voyage dans le Sahara Algérien de Géry Ville à Ourgla , le tour du monde , 1863, p162 .

[38]- E. Mangin , opcité , p 13-14 .

[39]- E. Mangin , ibidem .

[40]-Dubarail , François Charles , " Mes souvenirs " Tome 2 ;1851-1864 , 12° édit , Paris , 1898 , p 55 .